وفود العرب على كسرى

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

وجّه إليّ أستاذنا الجليل « ن » كلمة طيبة تحت هذا العنوان بشأن ما نشرته فى « الرسالة » فى موضوع « الخطابة بين الحرب والسياسة »

وما بال السيد الجليل « ن » يخفى عنا اسمه ، وقد دلّت عليه عبارته وأشارت إليه مقالته ، كما يدل فتيق المسك على المسك ، ونضح بالأدب اللباب أناؤه كما يتضح الإناء بما فيه . وقلنا ونحن نقرأ مقاله ونتذوق بيانه : هذه نفحة من شيخ أدباء الجارة الشرقية والشقيقة العربية ؛ طالمنا بها على بُعد أمد ، وطول عهد ، والتزام صمت ؛ فوردت تُمازجُ الروحَ لطافة ، وتجرى مع النَّفَس رقة

* * *

يتهمنى الأستاذ الجليل أننى قدّرت فى نفسى صحة حكاية وفود العرب على كسرى ، وهى تهمة يشرفنى أن أكون بها مقترفاً ، ولها مكتسباً ؛ فقد أوردت قصة الوفود فى مقام يقتضيها وسياق يستدعيها ، ولم أتعرض لها من حيث صحة الوقوع وصدق الرواية ؛ فذلك لم يكن سبيلى فى المقال ؛ ولكننى سقتها — على علاتها — كما ساقها صاحب العقد الفريد فى أول الجزء الثانى من كتابه .

وكان غايتى من سوْق خُطب الوفود فى مقالى بالرسالة أن أستشهد على حذق بعض الخطباء وحضور بدائهم وسرعة خواطرهم فى المقامات الضيقة التى يفرّجونها ببيان ولسان وجدل ، فلم أجد أحسن فى الاستشهاد ولا أطوع فى الانقياد من خطب وفود العرب على كسرى

وابن عبد ربه نفسه الذى نقل أخبار هذه الوفود يمهد لها فى أول كتاب الجمانة بقوله : « ... فإنها مقامات فضل ، ومشاهد حفل ، يتخير لها الكلام ، وتستهذب الألفاظ ، وتستجزل المعانى . ولا بد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم الذى عن قوته ينزعون وعن رأيه يصدرون » . وهذا كلام من ابن عبد ربه له خبيٌ ... معناه أنه مُقرٌ بصحة ما ينقله ، وأن هذه الوفودَ الوافدة على ملك الفرس لم تكن خبراً مصنوعاً ولا حديثاً موضوعاً . وأن غيرها من أخبار الوفود صحيح فى اعتبار المؤلف ،

بكثير ، ولما وقف تلك الوقفة الغبية البليدة أمام مقطوعة (الكون جميل)

ولاستطاع أن يدرك كما يدرك أصغر تلاميذ العقاد أن الشاعر الكبير حين قال :

قل ولا تحفل بشىء إنما الكون جميل

كان يستعرض فى لمحة من لمحات الحس . . . كل ما يعترض الفرد ويعترض الإنسانية من هموم وأشجان فى هذا الكون ، وكل ما ترمى به الحياة من تهم وشكايات ، وكل ما تذخره الدنيا من آلام وأشواك ؛ ويقابل هذا كله بذلك الجمال الكونى الفتان ، فيقولها قولة الصوفى العابد لهذا الجمال :

قل ولا تحفل بشىء إنما الكون جميل

قلها على الرغم من كل شىء ، فإن للكون شفاعة حاضرة من هذا الجمال ، بل إن الكون الجميل على وجه القصر والتوكيد لا يغض من صنعته هذه شىء من تلك الأشياء

وهذا هو الذى يقف أمامه « الدكتور مندور » يقول فى غير استحياء :

« هذه جملة مبتذلة لأنك تتساءل عن سر هذا القصر وذلك التأكيد فلا تهتدى إلى شىء »

وبعد فلا حديث لى بعد الآن مع ضحية الآلهة اليونان

(حلوان) سيد قطب

وخاصة بعد قوله في التمهيد المشار إليه : « وما ظنك بوافد قوم يتكلم بين يدى ... ملك جبار في رغبة أو رهبة ، فهو يوطد لقدمه مرة ، ويتحفظ من أمامه أخرى ، أتراه مدخراً نتيجة من نتائج الحكمة ، أو مستبقياً غريبة من غرائب الفطنة ؟ »

ويقول الأستاذ الجليل « ن » ناقلاً كلاماً له في موضوع الوفود على كسرى : « ولن يجوز العقل أن يقعد ابن الأكاسرة لاستماع ثرثرة كل مهذار نفاج ، ويفرغ لشهود مجرفة المتعجرف وعنجهيته » . وأقول إن الأستاذ العربي الجليل قد رمى العرب في هذه القالة بما لم يرمهم به أعداؤهم ، فكيف يفوت ذلك على فطنة أستاذنا وهو يعلم أنه إذا رَمَى فسيصيبه سهمه ، وأنه — أعزَّه الله وشرَّفه — من غزيَّةَ ... إن غَوَتْ غوَى ... وإن تَرْشُدْ غُزيَّةُ يَرْشُدْ ... !

لقد كان النعمان من ملوك الحيرة ، ولهم الملك المؤثل كما كان الغساسنة في الشام . وهذا كلام لا يغيب عن علم الأستاذ الجليل ولا يندُّ عن أبسط معارفه ، كما لا يغيب عنه شعر حسان ابن ثابت — في الجاهلية — في مدح الغساسنة ووصف بياض وجوههم ، وكرم أحسابهم ، وشمم أنوفهم ، وأولية طرازهم ... فهل يقل المناذرة عن الغساسنة شيئاً من مكارم العرب واعتدادهم بأنفسهم في ساعة يحسُّون فيها انتقاص منتقص ، أو اعتداء معتد مهما كان شأنه ؟

وما الذي يمنع من وفود النعمان على كسرى وهو تابع له وفي ظل حمايته ؟ لا شيء يمنع عقلاً من حدوث الوفادة . ونحن نرى في زماننا هذا الأمم المحمية ، يفد مندوبوها على الأمم الحامية القوية ... ويجلسون حول الأنضاد الكبيرة ، والموائد المستديرة !

فهل تعدم هذه الأمم المحمية اليوم رجلاً من أعز رجالاتها ؛ أو بضعة من أصدق ألسنتها يقولون ما يعتقدون ، ويدفعون عن أممهم وأوطانهم بحسن البيان ، ما لا يستطيعون دفعه بالسنان ؟

اللهم إن هذا يحدث اليوم تحت سمعنا وأبصارنا ، والأستاذ « ن » شاهد به غير منكر له ؛ وعنده من شعر صديقه شوقي وحافظ في هذه الوفود الحديثة والموائد الخُضر نبأ يقين ...

فلماذا ينكر هذا القلب العربي المتوثب — قلب أستاذنا الجليل ن — على النعمان بن المنذر وأكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والحارث بن عباد وقيس بن مسعود والحارث بن ظالم وغيرهم من سادات تميم ، وأشراف بكر ، وغطاريف عامر ، وجحاجحة زبيد — كيف ينكر عليهم أن يقولوا في سبيل المروءة كلمةً يعتقدون حقيقتها ويؤمنون بصدقها ، إيمانهم بالمصطحبات من لصاف وتبرة يزرن ألالاً ويتدافعن في سيرهن ... ؟

يقول الأستاذ الجليل « ن » (كلام الذين أوفدهم ابن ماء السماء إلى سلطان فارس مزور مختلق لم يقله النعمان ولا جماعته ولن يستجرئوا على مثله)

ونحن نقول إن العربي لا يستجري على إعلان حميته وإبائه إلا لما أودع الله فيه من صفات الأنفة العزيزة والكبرياء الرفيعة ؛ حتى ولو كان في الأطمار والأسمال خاوي البطن عاري الشوى والمنكبين من الطوى ... وهو على عنجهيته ولوثته يسير بمواطن الكلام ، عليم بمرامي السهام ...

وإني على ما كان من عنجهيتي ولوثة أعرابيتي لأديب

وقد انتقى النعمان لوفد كسرى جماعة وزنهم بميزانه ، وأنزلهم أقدارهم التي يعرفها عنهم ؛ وتوسم فيهم — لطول معرفة ، أو حسن سماع ، أو صدق جوار — حسن الجواب ولطف المخرج من مضايق الكلام . ولم يخترهم من أهل الغفلة والبله ، والسرعة والحمق ؛ وتلك حسنة أخرى من حسنات النعمان ، وفضيلة من فضائله ؛ فهو هنا محسن يحسن اختيار الرجال ، ويتنخَّل أعضاء الوفود الذين يصح أن توكل إليهم المهمات وتلقى عليهم التبعات ...

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصه

وفعلاً وحقاً وصدقاً ، لم يكذب النعمانُ قولَ الشاعر الإسلامي فأرسل مع الوفد حكيماً عربياً عُرف بالقصد في الكلام واشتهر بالقولة السائرة والحكمة المرسلة ، وهو أكثم بن صيفي ، فلم يَعْدُ أن يكون حكيماً في مقام المفاخرة . وتلك لطيفة من لطائف وفود العرب على كسرى ؛ فقد كانوا يستطيعون أن يكونوا كلهم أبواقاً — أو بوقات — يضربون على فضائلهم ، ويغنون على « ليلياتهم » ... ولكنهم قسَّموا العمل ، ووزعوا الخطة وأحكموا الطريقة في هذا المؤتمر الذي يشبه مؤتمر « كذا » في بلاد « كذا » في عصرنا الحديث ...

فأكثم بن صيفي حكيم ينطق بقدر ، ويزن الكلام إذا

نطق ، فليس ثرثارة يخطب ، ولا مهذاراً يُكثر ؛ بل يرسل الحكمة تلو الحكمة ، والكلمة الصادقة أثر الكلمة ، ويوجه الكلام — على حد البلاغيين — فيأخذ منه كسرى ما يأخذ لنفسه ويدع ما يدع . والحكيم في ذلك لم يُغلظ في قول ، ولم يعنف في كلام ، ولم يجهل أقدار الملوك ، ولم يخرج عن جادة الاعتدال . فكيف يقال بعد ذلك إن خطباء هذه الوفود لن يستجرئوا على مثل ما نُسب إليهم من الكلام ؟

ويقوم عمرو بن الشريد السلمي فيفتخر في إيجاز ؛ ويهدد في إعجاز . أما افتخاره فما كان فيه غالياً ولا مبالغاً ولا نفّاجاً ولا كذاباً ولا مسخطاً لكسرى ولا متنقصاً للفرس ؛ فهو يقول عن العرب بارك الله فيهم : (إن في أموالنا مرتفداً ؛ وحلى عزنا معتمداً ، إن أوْرَينا ناراً أقبلنا ، وإن أودَ دهر بنا اعتدلنا . ألا إننا مع هذا لجوارك حافظون ، ولمن رامك مكافحون) . لا فُضَّ فوك يا ابن الشريد ! فما عدوتَ الصدق في كلامك ، ولا جاوزت الحد في افتخارك . فهو يعلن هنا في كلمته الموجزة ميثاق الصداقة مع حليفته الكبرى ... وهذا كلام لا يؤلم الحلفاء ؛ ولا يوجع الأصدقاء وترجمته في لغة السياسة الدولية الآن أنه إذا اعتُدي على بلاد الفرس فإن الأمة العربية الحليفة ملزمة بتقديم المعونة لها من المال والعتاد والرجال ...

فأين موضع الجرأة أو الكذب أو المغالاة أيها الأستاذ الجليل ، في هذا الكلام الوفيّ الجميل ؟

* * *

بقي أن ذكرتَ أيها السيد العربي الكريم في تساؤلك أن صانع خبر الوفود أو صائغه أو مختلقه أو مزوره هو الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي . فقد ذكر ياقوت الرومي أن من تصانيف الزبير هذا كتاب (وفود النعمان على كسرى)

وأقول أنا : إن ياقوت الرومي ذكر ما ذكر نقلاً عن ابن النديم صاحب الفهرست الذي عاش قبله بقرابة قرنين من الزمان . ووصفه ابن النديم بقوله : كان شاعراً ، صدوقاً ، راوية ، نبيل القدر . فكيف يجوز لمن هذه أوصافه أن يضع الحديث الأدبي ويختلق الأخبار ؟ وقد كان الزبير قاضياً على مكة وتوفي وهو قاض عليها . فكيف صح في القضاء رجل يتهمه أستاذنا الجليل اليوم بالوضع والاختلاق

وما حاجة الأستاذ الجليل أن يبني كلامه في اتهام الزبير بكار على الظن والفروض ما دام كتابه في وفود النعمان على كسرى لم يصل إلينا

وفوق ذلك أن الزبير بن بكار عاش في القرن الثالث الهجري ومات سنة ٢٥٦هـ وفق رواية ابن النديم . فهو متأخر عن ابن القطامي والكلبي اللذين نقل عنهما ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد حكاية الوفود على كسرى . فإذا كان هناك وضع في هذه الحكاية فأولى به أن يكون صاحبه ابن القطامي أو الكلبي وهما من رواة القرن الثاني الهجري . أما الكلبي — سواء أكان محمداً الكلبي أم ابنه هشاما الكلبي — فلم يشتهر عنهما وضع وشهد لهما الأوائل بتقدمهما في علم الأنساب

أما ابن القطامي فقد اشتهر عنه الكذب المقصود والاختلاق المعمود إليه ؛ مع غفلة وبلاهة وضعف في الحكم وسقم في الفهم وسرعة تصديق لما يسمع من غير تدبر وتفهم . ويحكون عنه في ذلك حكاية في الفهرست لابن النديم . ويجوز أن يكون هو الذي وضع أوضاع حكاية وفود العرب على كسرى إن كان لا بد في هذه الحكاية من وضع

أما رأيي أنا ... فحكاية الوفود صحيحة وليس فيها محل للانكار والاستنكار ، وهي جائزة الحدوث علماً وعقلاً ، فهي تتفق مع صراحة العرب وإبائهم وحسن قيامهم في المواقف الضيقة وصدق حكمتهم ، والوفاء لأحلافهم ؛ ولو أن فيها بعضاً من زخرفة الرواة وتزيُّد أهل الأخبار .

محمد عبد الغني حسن

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأثمان الآتية :
السنة الأولى في مجلد واحد ١٠٠ قرش ،
و ١٠٠ قرش عن كل سنة من السنوات :
الثانية والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة في مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدره خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد .